

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدِّينِيُّ

مَقْبَلُ الْكُتُبِ

عبد الحميد جودة السحار

١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى »

(قرآن کریم)

(سورة طه)

استمرتْ خيوطُ التآمرِ على عثمانَ تُحاكُ في
الظلامِ ، ونالَ النَّاسُ منه أَكْثَرَ ما يَبْلُغُ من أحدٍ .
وكتبَ أَهلُ مِصرَ أشياعَهُم من أَهلِ الكوفةِ وأهلِ
البصرةِ ، وتواعدوا على اللِّقاءِ في المدينةِ ، فخرجَ
أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ مظهرينَ رِغبتَهُم في الحجِّ ،
وخرجَ أَهلُ الكوفةِ والبصرةِ ؛ وبالقربِ من المدينةِ
سارتِ الرُّسُلُ بينَ جماعاتِ الثُّوَرِ .

بلغَ عثمانُ أنَّ الثُّوَرِ قد ساروا إلى المدينةِ ، وكانَ
يَعْلَمُ منزلةَ عليٍّ في النَّاسِ ، فأرسلَ إليه ، يَطْلُبُ منه
أنْ يَخْرُجَ لِلِقائِهِم ورَدَّهُم ، فخرجَ عليٌّ وقابلَ أَهلَ
مِصرَ ، ثمَّ عادَ إلى عثمانَ وقالَ له :

- إِنَّ وَفْدَ مِصْرَ يَطْلُبُ عَزْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحَ .

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ وَالْيَا عَلَى مِصْرَ ، وَقَدْ كَرِهَ النَّاسُ وَلَايَتَهُ ، وَسَاعَدَ عَلَى كُرْهِ النَّاسِ لَهُ ، مَا كَانَ يُذِيعُهُ عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَأَنْصَارُهُ . وَقَبْلَ عَثْمَانَ رَغْبَةُ الْمِصْرِيِّينَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، يَقُولُ :
- اخْتَارُوا عَلَيْكُمْ رَجُلًا مَكَانَهُ .

فَاخْتَارَ النَّاسُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ، فَكَتَبَ عَثْمَانُ عَهْدَهُ لَهُ وَوَلَاةَ ، فَتَأَهَّبَ أَهْلُ مِصْرَ لِلْعُودَةِ إِلَى دِيَارِهِمْ ، وَسَرَى هَذَا النَّبَأُ فِي الْمَدِينَةِ فَانْتَعَشَتْ ، وَانْقَضَى هَذَا الْيَوْمُ بِسَلَامٍ ، وَأَقْبَلَ الْيَوْمَ التَّالِي ، فَدَخَلَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ ، وَكَانَ مُسْتَشَارَ عَثْمَانَ وَقَرِيْبَهُ ، وَقَالَ لَهُ :

- تَكَلِّمْ . أَعْلِمِ النَّاسَ أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ قَدْ رَجَعُوا وَأَنَّ مَا بَلَغَهُمْ عَنْ إِمَامِهِمْ كَانَ بَاطِلًا ، فَإِنَّ خُطْبَتَكَ

تسيرُ في البلاد ، قبل أن يتحلبَ (يَفْدَ) النَّاسُ
عليك من أمصارِهِمْ ، فيأتيكَ من لا تستطيعُ دفعه .

فأبى عثمان أن يخرجَ ليخطبَ ، ولكنَّ مروانَ لم
يَزَلْ به حتى خرجَ ، واعتلى المنبرَ وقال :

- أما بعد ، إنَّ هؤلاءِ القومَ من أهلِ مصرَ كان
بلغَهُم عن إمامِهِم أمرٌ ، فلما تيقنوا أنه باطلٌ ما
بلغَهُم عنه ، رجَعوا إلى بلادِهِمْ .

وكان عمرو بنُ العاصِ في المسجدَ ، وكان عاملاً
على مصرَ وقد عزله عثمان ، فأرادَ أن يُشيرَ النَّاسَ
على عثمان ، فقال :

- اتَّقِ اللَّهَ يا عثمان ، وتُبْ إلى اللَّهِ .

وهمَّ عثمان أن يرُدَّ على عمرو ، ولكنَّ صوتاً
آخرَ نادى من ناحيةٍ أخرى :

- تُبْ إلى اللَّهِ ، وأظهرِ التوبةَ ، يكفِ النَّاسُ
عنك .

فرفع عثمانُ يديه مدًّا ، واستقبلَ القبلةَ وقال :
- اللهم أنى أوَّلُ تائبٍ تابَ إليك .

٢

خرج محمدٌ بنُ أبى بكرٍ إلى مصرَ ، وخرج معه
عددٌ من المهاجرينَ والأنصارَ ، ينظرونَ فيما بينَ أهلِ
مِصرَ وابنِ أبى سَرحَ . وانطلقَ الركبُ ، وترك
المدينةَ ، وانقضتْ ثلاثةُ أيامَ ، ولمَحَ الناسُ غلامًا
أسودَّ على بعيرٍ يخطئه خطًا ، فانظروه لعلَّه
يقصدهم حاجةً ، ولكنَّه لما حاذاهم لم يتمهل ، ولم
ينتظر ، بل استمرَّ فى سيره . فارتابوا فى أمره ،
وبعثوا من يطلبه ، فجاء به ، فسألوه :

- ما قضيتُك وما شأنُك ؟ أهاربُ أم طالبٌ أحدًا ؟

- لا هذا ولا ذاك ، وإنما أنا غلامٌ أمير المؤمنين ،
وجَّهني إلى عامله في مصر .

فأشار رجلٌ إلى محمد بن أبي بكر ، وقال :
- هذا عاملُ مصر .

- ليسَ هذا أريد .

وأراد الغلامُ أن يستأنفَ سيره ، ولكنَّ محمدَ ابنَ
أبي بكر قبضَ عليه ، وقال له :
- غلامٌ من أنت .

- غلامٌ أمير المؤمنين .

فنظر محمدٌ نظرةً حادةً ، وقال وهو يهزُّه :
- أحقًّا ؟

فقال الغلامُ في خوفٍ :

- بل غلامٌ مروان .

فقال له محمدٌ بنُ أبي بكر :

- إلى من أرسلت ؟

- إلى عاملٍ مصر .

- بماذا ؟

- برسالة .

- مَعَكَ كتاب ؟

- لا

- فَتَشَوْهُ .

فَفَتَشَوْهُ فَوَجَدُوا مَعَهُ كِتَابًا مِنْ عِثْمَانَ إِلَى ابْنِ أَبِي
سَرْحٍ ، فَجَمَعَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ ، ثُمَّ فَلَكَ الْكِتَابَ
بِمَحْضَرٍ مِنْهُمْ ، وَرَاحَ يَقْرَأُهُ ، فَرَأَى أَنَّ عِثْمَانَ يَأْمُرُ
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحٍ بِقَتْلِهِ وَقَتْلِ أَصْحَابِهِ ، فَعَادَ
مُحَمَّدٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى قَتْلِ عِثْمَانَ .

٣

سَمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَصْوَاتَ التَّكْبِيرِ ، فَخَرَجُوا
يَسْأَلُونَ : مَا الْخَبَرُ ؟ فَعَلِمُوا أَنَّ الْمَصْرِيِّينَ قَدْ عَادُوا

أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت
فرس ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن
العاص ، فقال :

- فرسى ورب الكعبة .

فلما دنت الفرس ، عرفها صاحبها المصري ،
فقال : فرسى ورب الكعبة .

فقام محمد بن عمرو بن العاص إلى المصري ،
فضربه بالسوط ، وقال :

- خذها وأنا ابن الأكرمين .

بلغ ذلك أباه عمرو بن العاص ، فخشى أن يشكو
المصري ما ناله لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ،
فحبس الرجل ، ولكنه هرب من سجنه ، وأتى
عمر ، فأرسل عمر إلى عمرو أن يأتيه من قوره ،

— واللّٰه ما تكبّْتُ ولا أمرْتُ ولا شووَرْتُ
ولا علِمْتُ .

فقال عليُّ بنُ أبي طالب :

— قد صدق .

فارتاح إليها عثمان ، وقال المصريون :

— فالكتابُ كتابك ؟

— أجلْ ، ولكنه كُتبَ بغيرِ أمرى .

— فإنَّ الرسولَ الذي وجدنا معه الكتابَ غلامُك ؟

— أجلْ ، ولكنه بغيرِ إذنِي .

— فالجملُ جملُك ؟

— أجلْ ، ولكنه أخذَ بغيرِ علمي .

فقالوا له :

— ما أنتَ إلّا صادقٌ ، أو كاذبٌ ، فإن كنتَ

كاذبًا ، فقد استحققتَ الخلعَ ، لما أمرتَ به من

سفكِ دماننا بغيرِ حقِّها ؛ وإن كنتَ صادقًا ، فقد

استحقت أن تُخلع لضعفك وغفلك وخبط
بطانتك ، لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من
يُقطع مثل هذا الأمر دونه ، لضعفه وغفله ، فاردد
خلافنا ، واعتزل أمرنا ، فإن ذلك أسلم منك ،
وأسلم لك منا .

فقال عثمان :

- أمّا قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصا
قمصنيه الله عز وجل ، وأكرمني به ، وخصني به
على غيري ، ولكن أتوب وأنزع ، ولا أعود إلى
شيء عابه المسلمون ، فبأنى والله الفقير إلى الله ،
الخائف منه .

- فلما منصرفين حتى نزلك ، ونستبدل بك .

٤

حوصر عثمان في داره ، وقد حصّره المصريون ،
واشرك محمد بن أبي بكر معهم ، وأرسل علي بن

أبى طالب ولديه الحسن والحسين ليقوما على باب عثمان ، يدافعان عنه ، وجاء بنو أمية لينصروا عثمان ، ومنع الثَّوَارُ عنه الماء ، فأرسل إلى علي والزُّبَيْر وطلحة وعائشة ، يقول لهم :

— إنهم منعونا الماء ، فإن قَدَرْتُمْ أن تُرسلوا إلينا شيئاً من الماء فافعلوا .

فجاء عليٌّ إلى الثَّوَار ، وقال لهم :

— يأيُّها الناس ، إن الذى تفعلونه لا يُشبه أمرَ

المؤمنين ، ولا أمرَ الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا

الرَّجُل الماء ، فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتأسِرَ فُطْعُمُ

وتَسْقَى ، وما تعرَّضَ لكم هذا الرجل ، فِيمَ

تستحلُّون حَصْرَهُ وقتله ؟

فقال الثَّوَار .

— لا والله ، لا نتركه يأكل ولا يشرب ...

وحاول الثَّوَارُ اقتحامَ الباب ، فبرز لهم الحسنُ
والْحُسَيْنُ وابنُ الزُّبَيْر ، ومن كان من أبناء الصُّحابة ،
وتضارب الفريقان بالسُّيُوف ، فنادى عثمانُ من
يدافعون عنه :

— اللَّهُ اللَّهُ ! أنتم في حِلٍّ من نصرتي .

فرفضوا واستمروا في القتال ، ففتح عثمانُ
الباب ، وخرج معه السيفُ لِيُنْهِيَهُمْ ، فلما رأى
الثَّوَارُ عثمانَ ثَبَتُوا مكانَهُمْ قليلاً ، ثم وَلَّوْا فَرَعَيْنِ ،
فأقسمَ عثمانُ على المدافعين عنه : لِيَدْخُلَنَّ ،
فدخلوا ، فأغلق البابَ دونَ الثَّوَارِ .

جاء الثَّوَارُ بنار ، وأحرقوا البابَ ، والسَّقِيفَةَ ،
فأخذ الخشبَ يحترق ، وأغفى عثمانُ بنُ عفَّانَ ، ثم
استيقظَ فقال :

— لولا أن يقولَ النَّاسُ تَمَنَّى عثمانُ أَمْنِيَةً
لَحَدَّثْتُكُمْ .

- أصلحك الله ، حدثنا ، فليسا نقول ما يقول
الناس .

- إني رأيتُ رسولَ الله في منامي هذا ، فقال :
« إنك شاهدٌ معنا الجمعة » .

وأكلت النارُ الخشبَ ، فسقطت السقيفة ، فنار
أهل الدار ، وخرج الحسنُ والحسينُ وأبناء الصحابة
يأدرون الثور ، ووقف عثمانُ يُصلي في هدوء ،
كأنما الأمرُ لا يعنيه ، وجعل يقرأ في صلاته :
« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . واستمرَّ
في قراءته هادئ النفس ، وأتمَّ صلاته ، ثم التفت
إلى ابن الزبير ، وأمره أن يأمر الذين يدافعون عنه أن
ينصرفوا إلى منازلهم .

واستمرَّ القتالُ ناشباً أمام دار عثمان ، فجرح
الحسن ، فخشي الثور أن يثورَ بنو هاشم للحسن ،
فتسلقَ محمدُ ابنُ أبي بكر السور ، وتسلفه معه بعضُ

الثَّوَار ، ودخلوا على عثمان دون أن يعلم أحدٌ بذلك فمن كانوا بالباب .

وتقدّم محمدُ بنُ أبي بكرٍ من عثمان ، فأخذَ بلحيته فقال :

- ما أغنى عنك معاوية ، وما أغنى عنك ابنُ عامر ، وما أغنتَ عنك كتبك ، على أيِّ دينٍ أنت ؟
- على دينِ الإسلام ، يابنَ أخي . ما كان أبوك ليأخذَ بلحيتي .

أحسنُ محمدُ بنُ أبي بكرٍ خِزياً ، فغطى وجهه بيده ، ثمَّ انسحبَ خافضَ الرأس ، وحاول أن يدفعَ الثَّوَار المُقبلينَ لقتلِ عثمان ، ولكنه لم يُوفق ، فقد ضربَ أحدهم عثمانَ بحريته ، وضربه آخرُ بسيفه . وقامت زوجته تدافعُ عنه ، فقطع السيفُ أصابعها ، فصرخت :

— قد قُتِلَ أميرُ المؤمنين .

وبلغ صوتُها آذانَ المدافعينَ عن الباب ، فأسرعوا
بالدخول ، فوجدوا عثمانَ مقتولا ، فبكوا ، وذاع
النبا : ألا إنَّ أميرَ المؤمنين قد قُتِلَ ، فأقبلَ عليّ ،
ودخل الدارَ وهو حزين .

ولم يجرؤ أحدٌ علي دفنِ عثمان ، خشيةً بطشِ
التَّواريق به ، فلما جاء الليل ، خرج أهلُ الدارِ بجثمانِ
عثمانَ وهم يتلفَتون ، حتَّى إذا بلغوا جدارا دَفَنوه ،
ومحاذوا مسرعينَ وهم خائفون ، وهكذا دُفِنَ عثمان
خليفةُ المسلمين ، وصهرُ الرِّسول ، في سكونٍ
الليل ، وفي غفلةٍ من الناس !